قدر من الحرية...

أبو المعاطي أبو النجا

لا أريد أن أبسّط الموقف فأقول إن الذي رأيناه هو موقف الأنظمة لا الشعوب، ولا أظن أيضاً أن الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية أنظمة وشعوبا في هذا الموقف تختلف اختلافاً جوهرياً في أسبابها عن هزائم سابقة لحقت بها من العدو نفسه، فالهزيمة هذه المرة مثل سابقاتها، ربما كان الفرق في ترتيب الهزيمة. فالمفروض أن الناس تتعبم من الهزائم التي تلحق بها فلا تكون الهزيمة الرابعة أو الخامسة أفدح وأثقل من الأولى والثانية، وربما كان الفرق في الطريقة التي تم بها العدوان الذي لم يكن مفاجأة لأحد، والوقت الذي استغرقه، والدور الذي لغبته وسائل الإعلام العالمية في تغطيته يوماً بيوم، والمقاومة المذهلة لقوات الثورة الفلسطينية واللبنانية في أطول معركة مع إسرائيل، ربما يكون الفرق في الدور المزدوج لهذا الوقت الطويل الذي كان يبرز مدى الصمود من جانب المقاومة، ومدى العجز من جانب الأنظمة، ربما كان الفرق في الأقنعة التي سقطت والأوهام التي تبددت على جميع الجوانب، سواء فيما يتعلق بموقف القوى العظمى، أو بمزاعم اسرائيل في السلام، أو بالمسافة بين شعارات دول الصمود وما يمكن أن تفعله وقت الجد.

وربما كان الفرق أيضاً أن هذا العدوان جاء في سياق أحداث كبيرة وخطيرة، ووسط متغيّرات تجعل الأمة العربية تبدو وكأنها أمة فريدة بين الأمم فيما تملك من إمكانات مذهلة، وفي عجزها عن استخدام هذه الإمكانات بشكل يخدم قضاياها المصيرية.

فها هو نصر أكتوبر المحدود الذي تتمثّل قيمته في دلالته على ما يمكن أن يتحقق لو حاولنا أن نستخدم بكفاءة بعض ما نملك من عناصر القوة، فماذا فعلنا به؟ وماذا أخذنا في مقابله؟ وكيف انتهى بنا؟

ومن بعده صارت الأمة العربية مالكة لأضخم ثروة عرفتها في تاريخها الحديث، ولما تعنيه هذه الثروة من إمكانات هائلة للخروج من مأزق التخلف، لو عرفت هذه الأمة كيف تهتدي إلى الصيغة التي تمكّنها من استثمار هذه الثروة بطريقة تحوّلها من مصدر مهدد بالنفاد الى مصادر دائمة ومتجددة من خلال تنمية الموارد البشرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فما الذي تفعله الآن بهذه الثروة؟ وكيف تنفق على مرأى ومسمع من الجميع؟ وكيف يستنزف الكثير منها في الحروب الظاهرة والخفية بين الدول العربية المتجاورة أو بينها وبين غيرها..!

ربما كانت كل هذه الملابسات هي التي تجعل هذه الهزيمة تبدو وكأنها أمر مختلف عن سابقاتها يجعل الدكتور سهيل إدريس يدعو المثقفين العرب إلى مراجعة أفكارهم وإعادة تقييم دورهم ودور الثقافة في مسيرة النضال العربي ضد

الاستعمار والصهيونية والرجعية والتخلف... الخ.

لقد انسقت وراء السؤال فتحدثت عن هزيمة الأمة العربية، وكأنها أمة واحدة بالفعل، تنتصر أو تنهزم، تملك عناصر القوة فتحسن أو تسيء استخدامها، متناسياً واقع التجزئة المرير، فهل أستمر في الانسياق وراء السؤال فأظل أتحدث عن أو الى المثقفين العرب وكأنهم فريق واحد؟! إن الأمة العربية، لألف سبب، تعيش التجزئة وتعانيها وتمور بتيارات ثقافية وفكرية وسياسية متعددة بتعدّد الأنظمة والأحزاب السياسية العلنية والسرية التي في الحكم، والتي في الشارع والتي في السجون، فهل يملك أيّ مثقف سوى أن يتحدث باسمه، أن يخرج بطاقة انتمائه السياسي أو المذهبي أو الفكري، وفي إطاره يقدم اجتهاده الخاص ما لم يكن قدمه بالفعل في بعض كتبه أو مقالاته؟

ولكن ماذا يستطيع كاتب قصة مثلي، (لم يلعب يوماً لعبة السياسة) سوى أن يواصل تقديم رؤاه الفنية حول هذا الواقع العربي الأليم، وسوى أن يقدم في مجال الاجابة على سؤال مجلة «الآداب» تصوره ـ لا عن دور جديد محدد للثقافة العربية، فهناك كما ألمحنا أكثر من تيار ومن اتجاه لهذه الثقافة ـ بل عن صيغة جديدة لا بد أن يتفق عليها الجميع للتفاعل الصحيح بين كل هذه التيارات الثقافية والفكرية في العالم العربي.

ولأبدأ من البداية بتنظيم أفكاري حول هذه المسألة، فدون تبسيط مخلّ أتصور أن من معاني الهزائم المتكررة أمام إسرائيل أن ثمة أخطاء أساسية في أفكارنا وخططنا الاستراتيجية لمواجهة إسرائيل بكل ما تعنيه، وأن التيارات السياسية والثقافية عندنا لا تملك في رصيدها الاستراتيجي تصورات قابلة للتنفيذ لمواجهة اسرائيل حرباً أو سلماً، أو على الأقل أن هذه التصورات لا تجد طريقاً إلى التحقّق من خلال الأنظمة أو من خلال الجماهير، وباختصار أرجو ألا يكون مخلا أيضاً، فإن التيارات السياسية والثقافية التي يندرج تحت ألويتها المثقفون العرب هي: التيار الديني، التيار القومي، التيار الليبرالي العلماني، التيار التقدمي، وتحت كل تيار منها أجنحة متعددة، والمسألة في جوهرها ليست مفاضلة بين هذه التيارات أيّها يستحق أن يقود هذه الأمة؟ فالحكم الصحيح على قيمة أي تيار لن تتاح فرصته إلا في إطار من الديمقراطية التي تسمح لهذه التيارات باختبار قواها الحقيقية من خلال الصراع الفكري مع سائر التيارات، وفي سبيل الوصول الى جماهيرها وكسب تأييدهم؛ ولا شك أن كلٍ واحد من هذه التيارات يشكل ملمحاً أساسياً، ويعبر عن حاجة أساسية في قلب وعقل هذه الأمة خلال رحلة تطورها لتأكيد ذاتيتها الثقافية والوطنية في الأطار العام للذات القومية وبما يزيدها نمواً وثراء.

المسألة في جوهرها إذن هي الاهتداء إلى الصيغة التي تسمح لكل هذه التيارات أن تعمل معا، أن تتصارع معاً صراعاً فكريا بالدرجة الأولى من أجل الوصول الى جماهيرها، ومن أجل تنمية فكرها وتجربتها ورؤيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتوصيلها للناس، من أجل تقديم أجوبتها الكبرى على الأسئلة الأساسية في حياتنا، ما رؤيتها للتراث وللمستقبل؟ من أجل الدخول في حوار أعمق وأشمل مع تيارات الثقافة العالمية المعاصرة!!

فالمشكلة عندنا أن مثل هذا الحوار لم يحدث بشكل طبيعي أو بقدر معقول، مما أدى إلى شبه غيبة أو فقر في الفكر الاستراتيجي لهذه التيارات المختلفة. والأسباب عديدة، ومن أهمها موقف المثقفين من السلطة أو من قضية الديمقراطية بشكل عام: فالسلطة التي كانت في أكثر البلاد العربية خلال العقود الثلاثة الماضية تأتي في شكل انقلاب يبدأ في العادة بشعور حادّ

بالعزلة وعدم المشروعية، وفي سبيل الوصول الى هذه المشروعية كانت تتحالف مع ما يناسبها من هذه التيارات ومن مثقفيها. ولقد وقع العديد منهم في غواية الطرق السهلة، والرغبة في استخدام قوة السلطة لتكون سنداً لقوة الفكر والرأي، ووقع كلاهما، الحاكم والمثقف، في غواية أنه قادر على استخدام الآخر، ولكن كان يظهر عند الحسم، وفي لحظات الاختيار أن الحاكم هو الذي يطيح بالمثقف كلعبة من الورق، وكان كثير من هؤلاء الحكام يجدون، ويالمأساة، مثقفين آخرين جاهزين كثير من المثقفين، أن قوتهم الحقيقية في قدرتهم على بلورة فكر ناضج يمكن أن يتحول في قلوب الناس وعقولهم إلى اتجاهات ومواقف وسلوك وأن التغير الحقيقي الذي يتطلعون إلى احداثه في المجتمع لا بد أن يبدأ في فكر الناس ومن داخلهم، وأن السلطة حين كانت تلتمس تأييدهم في البداية فلأنهم رموز لهذه القوة، ولكن الكثيرين منهم نسوا مهمتهم الصعبة، واعتقدوا أنه يمكن من خلال التحالفات مع السلطة أن يتحقق فكرهم هم، ولم يقيموا الوزن الكافي لقضية الحرية، ولما ينبغي أن يتاح للتيارات الأخرى من حرية!!

ولم تكن قضية الحرية لتسهم فقط في حمايتهم حين يأتي عليهم الدور بل كانت ستسهم، وهذا هو الأهم، في إنضاج فكرهم وتعميقه وتوصيله للناس، المصدر الحقيقي أ و الذي ينبغي أن يكون، لكل قوة.

حدث هذا أمام سمع الجميع وبصره خلال العقود الثلاثة الماضية في كثير من البلاد العربية، فهل آن للمثقفين جميعاً بمختلف تياراتهم أن يتعلموا الدرس؟ هل ان للمثقفين جميعاً أن يصدقوا أن الصيغة الديمقراطية التي توفر القدر نفسه من الحرية للجميع مطلوبة دائماً، وفي كل وقت، وأن القتال من أجل ضمان وتوفير هذا القدر الممكن من الحرية للجميع هو معركتهم

لست أقفز بهذه الكلمات فوق مشكلة الحرية البالغة التعقيد، سواء الحرية بمعناها السياسي أو الاقتصادي، وأدرك أنهم يمكن أن يبدأوا بالاختلاف في تحديد معنى الحرية. وليس هنا مكان الجدل في هذه القضية، ولكني أتصور أن في ضوء تجربتنا المريرة الماضية يمكن الحديث عن قدر من الحرية، يكون تحديده وتحديد شكله وأسلوبه مهمتهم الأولى في هذه المرحلة، وبخاصة في عصر الثورة التكنولوجية في أدوات الاتصال، فلقد كان من أشد الغوايات التي وقع بسببها المثقفون في الأنشوطة غواية امتلاك الدولة وسلطتها لأجهزة النشر والاتصال والتأثير في الجماهير، وسوف تكون هذه المسألة وغيرها من أهم المسائل التي تطرح للحوار فيكون لكل «تيار» ساعات أو أعمدة في الصحف والاذاعة والتلفزيون بنسبة ما له من مقاعد في البرلمان. . . . أو أي شكل آخر.

لقد ثبت لنا جميعاً خلال العقود الثلاثة الماضية أن النوايا لا تكفي، وأن الغايات النبيلة لا تتحقق بأية وسيلة، وأن العنف قد لا يختصر الطريق بقدر ما يملأه بالألغام، وأن مصادر القوة الحقيقية وعناصرها في هذه الأمة لن تنمو ولن تصبح قوة حقيقية إلا في جو من الحرية، وبقدر ما نملك من اسبابها وبقدر ما نتحمل من أعبائها. لقد كانت المعركة مع إسرائيل هي الحجة الشهيرة التي بسببها ضاعت الحرية في بلادنا العربية، خلال العقود الثلاثة الماضية وكانت النتيجة أن خسرنا الحرية، وخسرنا نتائج المعارك مع إسرائيل، وكسبت إسرائيل نتائج العديد من المعارك مع صيغة من الحرية لا نزعم أننا نملك مثلها.

إذا أنجز المثقفون العرب هذه المهمة الأولى، توفير صيغة ملائمة من الحرية لكل التيارات الثقافية، إذا أدركوا في النهاية أن

الديمقراطية ليست مجرد صيغة محددة نستوردها من الغرب، وأنها من خلال كل أشكالها درجة عالية من نضج الذات الفردية والوطنية والقومية، وأنها الجاه نحوالموضوعية واحترام الذات وتنميتها من خلال الحرص على الاعتراف بما للآخر من حقوق في الحوار بل والصراع، إذا أدركوا أن المسألة رغم هولها ولا أقول صعوبتها تستحق، إذا شعروا بما شعرت به تلك المجموعة من التيارات الثقافية المختلفة التي جمعها سجن السادات في سبتمبر سنة ١٩٨١ حين اكتشفوا وهم يتحاورون داخل السجن ان ثمة أشياء كثيرة يمكن أن يتفقوا بشأنها.

إذا حدث هذا أو شيء منه فيمكن أن يتجه المثقفون تحت مظلّة الأمان التي يمكن أن توفرها هذه الصيغة من الحرية لإنجاز أهم أدوارهم التي لم يتمكنوا منها في الماضي بسبب فقدانهم للأمن، ولعبة القفز فوق اكتاف السلطة أو السقوط تحت أقدامها. أعني بهذه الأدوار أن يقوم مثقفو كل تيار ببناء تصورهم الاستراتيجي لحلول أهم المشكلات الكبرى في أوطاننا وفي أمتنا ومجتمعاتنا . أن يقدموا البدائل من الأجوبة أمام التساؤلات الكبيرة في حياتنا السياسية والاقتصادية والثقافية..! بحيث لا نفاجأ دائماً بالأحداث والمتغيرات..!

إن الثقافة الجديدة التي ننتظرها لا يقدمها مثقف واحد أو تيار واحد حتى يملك شخص حق الحديث عن أهم مقوماتها أو أدوارها، ان الثقافة الجديدة التي ننتظرها هي التي سوف تنمو بشكل طبيعي كثمرة رائعة لمناخ من الحرية يبدعها مثقفون أحرار يدركون أهمية الحرية لغيرهم كما يدركون أهميتها لهم.

لحظتها يمكن أن يقوم هؤلاء المثقفون الأحرار بتحليل ما حدث في بيروت وما جرى قبل ذلك وما يجري بعده، واستخلاص أهم المتغيرات ودعوة الناس الى مواجهة الحقائق، ولحظتها سوف يكون الجميع أمام مسؤولياتهم.

أعتقد أنه من هنا يجب أن تكون البداية كما قالها منذ ثلاثين عاما مفكر عربي اسلامي كبير هو الأستاذ خالد محمد خالد.

الكويت